كيفَ تُساهِمُ السِّيَاسةُ في تَنمِيَةِ الوَعي بقضيَّةِ القُدسِ؟
السِّياسةُ قِيادةٌ وبحثٌ عن الفَعَالِيَّةِ؛ لذلك سُمِّيَت «فَنَّ المُمكِنِ»، لكنَّ الأهَمَّ من كلِّ ذلكَ أنَّ السِّياسةَ هِدَايةٌ وتَوجِيهٌ للمجتمعِ، فخِلافًا لِمَا هو شائِعٌ، فإنَّهُ ليس مطلوبًا من النُّخَبِ السِّياسيَّةِ أن تَتَقَيَّدَ بتَوَجُّهَاتِ الرَّأيِ العامِّ بقَدرِ مَا هو مطلوبٌ منها ومُتَوقَّعٌ أن تُساهِمَ بصورةٍ أساسيَّةٍ في تكوينِ الرَّأي العامِّ، وفي تَنمِيَةِ الوَعي لَدَى العامَّةِ بقَضايَا المجتمعِ الرَّئيسَةِ.
في هذا الإطارِ، نَرجُو ونَتوقَّعُ من السِّياسةِ: أن تُبادِرَ في شأنِ مدينةِ القدسِ من خِلالِ وضعِ رُؤيَةٍ لمَا يمكنُ القيامُ به لحِمايةِ القدسِ من وضعِ اليدِّ الكاملِ عليها من قِبَلِ الحَرَكةِ الصُّهيونيَّةِ وبِمُبارَكَةٍ أمريكيَّةٍ حتَّى الآنَ -بالرَّغم من الاعتراضِ الدَّولِيِّ الواسع على هذه الخطوةِ-.
يمكنُ لعلاقَةِ المَرءِ بالقدس أن تكونَ عاطفيَّةً دينيَّةً، أو وطنيَّةً، أو قَومِيَّةً، أو ثقافيَّةً، أو مَحضَ إنسانيَّةٍ، لكن يُمكنُ كذلك أن تكونَ علاقةً عقلانِيَّةً مَسنُودَةً إلى أحكامِ القانونِ الدَّولِيِّ العامِّ. يَعُودُ للسِّياسَةِ أَمرُ تَبَنِّي أيٍّ من هذه الأبعادِ أو جميعِهَا مَعًا؛ للعَمَلِ بفَعَالِيَّةٍ لحِمَايةِ القدسِ.
ما نُلاحِظُهُ اليومَ هو مَشهدٌ عربيٌّ شديدُ التَّناقُضِ، ففي حِينِ نَرَى أنَّ العَواطِفَ الشَّعبيَّةَ تِجاهَ القدس جَيَّاشَةٌ والمُنتَدَيَاتِ الثَّقافيَّةَ مُتَلاحِقَةٌ، وخطابَهَا حاسِمٌ وجازِمٌ: نرى في نفسِ الوقتِ الوَهَنَ ظاهرًا على المُستوى السِّياسيِّ العامِّ؛ فكأنَّما السِّياسةُ العربيَّةُ اليومَ تُشكِّلُ الخاصرةَ الرّخوَةَ في مواجهةِ خطرِ تَهوِيدِ القُدسِ بالكاملِ.
يمكنُ أن نفهمَ أسبابَ هذا الوهنِ والبَعثَرَةِ الحاصِلَةِ في المواقِفِ العربيَّةِ تِجَاهَ قضيَّةِ فلسطينَ، وقضيَّةِ القدسِ بشكلٍ خاصٍّ بالنَّظَرِ إلى العُقُودِ الأخيرةِ الَّتي تَواجَهَ فيها مَنطِقَان:
منطقُ الصُّمُودِ والتَّصدِّي، ومنطقُ التَّسويَّاتِ القائمةِ على المفاوضاتِ.
وَسَقَطَ المنطقانِ معًا؛ الأوَّلُ: لأنَّه كان كلامًا وذَرِيعةً للاستبدادِ والتَّسَلُّطِ على الشُّعُوبِ. والثَّاني: لأنَّه ضُلِّلَ بالمواقِفِ الدَّوليَّةِ الدَّاعيةِ إلى التَّفاوُضِ وبخدعةِ الصُّهيونيَّةِ الَّتي ما زالت تُمَارِسُ الهُرُوبَ إلى الأمامِ، فيما أنَّ هذا التَّحدِّي وهذا الاستفزازَ إنَّما يُأَجِّجَانِ النَّارَ ويَبعَثَانِ إلى التَّطَرُّفِ، ورُبَّما إلى الإرهَابِ العَبَثِيِّ.
عُقُودٌ مضَت وَطُوِيَت معَها أحلامُنا فِي رؤيةِ فلسطينَ تحتَضِنُ شعبَهَا المُشَتَّتَ، وفي زيارةِ القدسِ لدَوَاعِي دينيَّةٍ وثقافيَّةٍ وإنسانيَّةٍ وقَومِيَّةٍ ووطنيَّةٍ

وعاطِفيَّةٍ، فإذا بالقَرارِ الأمريكِيِّ الأخيرِ يُمعِنُ في تحريكِ جُروحِنَا، وفي صَفعِ كرامَتِنَا، وفي المُساهَمَةِ في قَهرِنَا من خِلالِ الإقرَارِ بالقُدسِ عاصمةً لدولةٍ صُهيونِيَّةٍ.
سبَقَ للعَرَبِ وللمِسلِمينَ أن اعتدَلُوا ومَدُّوا اليدَّ لتسويةٍ مُشَرِّفَةٍ أَفضَت إليها القِمَّةُ العربيَّةُ في بيروت في العام ٢٠٠٢م تحتَ عُنوانِ: «الأرضُ مُقَابِلُ السَّلامِ»، فَأَبدَت الدُّولُ العربيَّةُ استعدادَهَا للتَّسويَةِ في إطارِ الاعترافِ بدولةِ إسرائيلَ مُقَابِلَ اِنسحابِ إسرائيلَ من الأراضِي العربيَّةِ المُحتَلَّةِ، وبِشَرطِ الإقرارِ بحُقوقِ الشَّعبِ الفِلسطِينِيِّ فِي إنشاءِ دولتِهِ الوطنيَّةِ على تُرابِ فلسطِينَ، وأن تكونَ القدسُ الشَّرقيَّةُ عاصمةً لها.
فاعترفَ العربُ ضِمنًا بالشَّرَاكَةِ في تُراثِ مدينةِ القدسِ، لكنَّ هذا الأمرَ تحوَّلَ إِلَى تنازُلٍ مجانٍّ للحركةِ الصُّهيونيَّةِ ولِحُلَفَائِهَا.
تحتَ نارِ «الرَّبيعِ العربيِّ» وأَمامَ شبَحِ امتدادِهِ إلى بقيَّةِ الدُّولِ، تَبَنَّى البعضُ مُقَارَبَةَ «الوطنِ القُطرِيِّ أوَّلًا»، فإذا بنا جميًعا نَنكَفِئُ عن القضيَّةِ الأُمِّ -عن مِحورِهَا المركزِيِّ- قضيَّةِ القدسِ، ونسعى إلى استقرارٍ هَزِيلٍ في أوطانِنَا، لكنَّ شبَحَ الحُرُوبِ بَقِي يُلاحِقُنَا من دُونِ هوادَةٍ.
والواضحُ: أنَّه ممنوعٌ على أيِّ شعبٍ عربيٍّ أن ينعَمَ بالاستقرارِ حتَّى ولو استسلم، كأنَّمَا المطلوبُ زَحلُنَا وَتَفكِيكُ كِيانَاتِنَا القُطرِيَّةِ حتَّى تعيشَ دولةُ إسرائيلَ على أساسِ العقيدةِ الصُّهيونيَّةِ، ما هي هذه الدَّولةُ الَّتي لا يمكنُ أن تعيشَ وتستقرَّ وتزدَهِرَ إلَّا على أنقَاضِ جِيرانِهَا؟!!
العواطفُ لا تكفِي، ولا المُنتَدَيَاتُ الثَّقَافيَّةُ على أهمِّيَّتِهَا، فنحنُ بحاجةٍ إلى رُؤيَةٍ وإلى قيادةٍ سياسيَّةٍ حكيمةٍ تَعتَبِرُ من الماضِي، وترسمُ ملامحَ المستقبلِ الَّذي يُلَبِّي تَطَلُّعَاتِ شُعُوبِنَا، نحنُ بحاجَةٍ إلى سياسَةٍ مُبَادَرَةٍ يكونُ أوَّلَ هَدَفٍ لها لَمُّ الشَّملِ وتجميعُ طاقاتِنا المُبعثَرَةِ، وأوَّلُها الطَّاقاتُ الفلسطينيَّةُ الَّتي نَحَرَتهَا واستنزَفَتهَا سَنَواتُ الانقسامِ والتَّبَاعُدِ بين الإخوةِ في الفصائلِ الفلسطينيَّةِ المختلِفَةِ.
نحنُ بحاجةٍ إلى سياسةٍ مُبَادَرَةٍ إلى إعادةِ تكوِينِ كُتلَةٍ حَرِجَةٍ عربيَّةٍ تُواجِهُ بحَزمٍ وبكرامةٍ وبحكمةٍ هذا الشَّطَطَ الحاصلَ في المواقفِ الأميركيَّةِ والإسرائيليَّةِ، فما جرَى في الأسابيعِ الأخيرةِ يُشكِّلُ تَحَدٍّ للمجتمعِ الدَّوليِّ وللقانونِ الدَّوليِّ العامِّ، ولا يجوزُ أن يمُرَّ، بل إنَّ علينا السَّعيَ لحَشدِ التَّأييدِ والدَّعمِ الدَّولِيَّينِ لقضيَّةِ القدسِ ومن خلالِهَا قضيَّةُ الشَّعبِ الفلسطينيِّ الَّذي

سَطَّر للآنَ أكبرَ مَلاحمِ البُطُولةِ حتَّى من خلالِ الانتفاضَاتِ المُتَلاحِقَةِ للشَّبابِ والفتيانِ ومؤخَّرًا الفتياتُ العُزَّلُ أمامَ التِّرسانةِ العَسكَريَّةِ الإسرائيليَّةِ. إنَّها معادلةُ شَعبٍ أعزَلٍ، مقهورٍ مُحتلٍّ، وصاحبِ حقٍّ في مواجهةِ قوَّةٍ عسكريَّةٍ محتَلَّةٍ وقاهرةٍ، ولسوءِ الحظِّ مدعومة من أعلى مواقعِ النُّفوذِ العالميَّةِ.

للسِّياسةِ أن تحشِدَ الدَّعمَ حولَ مُسلَّماتِ القانونِ الدَّولِيِّ العامِّ الَّذي ما زال يشكِّلُ مِظلَّةً للشَّرعيَّةِ الدَّوليَّةِ، فالحُجَّةُ القانونيَّةُ يجبُ أن تكونَ أولى حُجَجِنَا والسِّلاحَ الأقوى لكسبِ التَّأييدِ والتَّعاطُفِ من كلِّ الشُّعُوبِ، وحتَّى من الشَّعبِ الأمريكِيِّ نفسِهِ.

كيفَ للسِّياسةِ أن تَعمَلَ؟

تعملُ السِّياسةُ من خلالِ المؤسَّسَاتِ وأوَّلُهَا منظومةُ العَمَلِ العربيِّ المُشتَرَكِ، أي من خلالِ جامعةِ الدُّولِ العربيَّةِ.

فحقُّنَا أن نَسألَ أين الجامعةُ العربيَّةُ ممَّا يجرِي وفيمَا هو أبعدُ من البياناتِ الاحتجاجِيَّةِ اللَّفظِيَّةِ؟!

أين الموقفُ العربيُّ المُوحَّدُ، والَّذي وَحدَهُ يُرشِدُ العواطفَ، ويأطّرُ العملَ، ويلجِّمُ التَّطرُّفَ، ويضمَنِ الفَعَاليَّةَ؟!

تَحمِلُ المؤسَّساتُ العربيَّةُ المُشتركةُ مسؤوليَّةً تاريخيَّةً تِجاهَ الشُّعوبِ العربيَّةِ في هذه المرحلةِ المَفصلِيَّةِ؛ لأنَّ لا أحدَ يمكنُ أن يلعبَ دورَهَا، فالرُّؤيَةُ السِّياسيَّةُ تستوعبُ البُعدَ الدِّينيَّ والبُعدَ الثقافِيَّ والبُعدَ العاطِفِيَّ والبُعدَ الوطنيَّ والقوميَّ، وتتجاوَزُهُم في نفسِ الوقتِ في إطارِ خُطَّةِ تَحَرُّكٍ دبلوماسِيَّةٍ وحقوقيَّةٍ دَولِيَّةٍ وإقليميَّةٍ تُكَرِّسُ الحقَّ الفلسطينيَّ في فلسطينَ وفي القدسِ الشَّرقيَّةِ عاصمةً لدولةِ فلسطينَ.

ومِن على هذه المنصَّةِ ندعُو القادةَ العربَ لكي يكونوا تاريخيِّينَ، لكي يأخذوا المُبادَرَةَ ويعمَلُوا على وِحدَةِ الموقِفِ وعلى حَشدِ الدَّعمِ الدَّولِيِّ وعلى الحَزمِ في المواجهةِ، مواجهةٍ سياسيَّةٍ قانونيَّةٍ بامتيازٍ.

إذا كانَ قلبُ المسيحيِّينَ يَخفقُ للقدسِ، ووجدانُ المسلمينَ يرتَعِشُ شوقًا للمدينةِ المُقدَّسَةِ: فهذا لا يكفِي طالما أنَّ المسيحيَّةَ العالميَّةَ تغسلُ يدَيهَا ممَّا يجرِي، والإسلامَ واقعٌ رهينةَ المتطرِّفينَ والإرهابيِّينَ، والضَّميرَ العالميَّ يَغفُو في سُبَاتٍ عَمِيقٍ.

فَلتَمتَدّ يدُ السِّياسةِ وتُصحِّحُ الموقفَ المسيحيَّ، وتفكُّ أسرَ الإسلامِ الحنيفِ، وتوقِظُ ضميرَ المجتمعِ الدَّولِيِّ. وفي كلِّ ذلك يجبُ أن نبقَى مُتَمَسِّكينَ بأخلاقيَّاتِنا الدِّينيَّةِ، وهذَا الأمرُ لا يتعارَضُ معَ الموقف الصّلبِ والحازِمِ والكريمِ لانتزَاعِ شرعِيَّةِ حقوقِنَا وتكريسِهَا. فصحيحٌ أنَّ المسيحيَّةَ دينُ المحبَّةِ، والإسلامَ دينُ الرَّحمةِ، لكنَّنا شعوبٌ مقهورةٌ ومُدَاسَةٌ كَرَامتهَا، فعلينا أن نرفعَ الصَّوتَ عاليًا ونتَّحِدَ ونمدَّ يدَنَا إلى العالَمِ أَجمَع، رافعين صَوتَ الحقِّ ورايَةَ الكرامةِ والحريَّةِ، ولا بُدَّ أن يتعاطَفَ معنَا العالَمُ وأن يستجيبَ لنا القَدَرُ.

واللَّهُ كانَ دائمًا معَ أصحابِ الحقِّ والصَّابرِينَ